تذكر ممشاك

إلى القبر

إعداد

القسم العلمي بدار ابن خزيمة

مصدر هذه المادة :





بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، ،أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

أخي.. تذكر ممشاك إلى القبر.. واذكر مبيتك فيه وحيدًا فريدًا.. في حفرة ضيقة مظلمة.. مغلقة محكمة..

تذكر أول ليلة تبيتها.. وأول نزلة تنزلها.. وأول سؤال تسمعه من ربك؟ ما دينك؟ ماذا تقول في الرجل الذي بعث فيكم؟

تذكر ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

تذكر.. فإنه ما من شيء إلا ومنظر القبر أفظع منه.. يراه الغافل حفرة قد طمرت بالتراب.. بينما يجثم تحت وقارها وصماتها جسد لا يدري، أهو في نعيم أم في عذاب؟

فالقبر إن كان مقعد رضوان من الله، فهو نعيم مقيم لصاحبه مد البصر، وإن كان مقعد عذاب فهو جحيم ونار تلظى يحطك بعضها بعضًا.. نسأل الله النجاة والعافية.

يـــا ويـــح هـــذي الأرض مـــا تضـــع
أكـــــل حـــــي فوقهـــــا تصـــــرع
تـــــزرعهم حـــــتى إذا مـــــا اســـــتووا
عـــادت لهـــم تحصـــد مـــا تـــزرع

قال محمد بن واسع وهو في الموت: يا إخوتاه، تدرون أين يذهب بي؟ يذهب بي والله لا إله إلا هو إلى النار أو يعفو عني».

فماذا أعددت أخي.. لهذا اليوم؟

تذكر لحظات الاحتضار

ما من أحد إلا وهو موعود بلحظة احتضار عصيبة.. تتحشرج فيها النفس، وتخرج فيها الروح.. وتري كل أسلفه محتضر حقيقة أعماله.. وما أسلفه في أيامه.. وليس اللبيب من جمع للدنيا.. أو كسب فيها الجاه والمناصب العليا.. ولكنه ذاك الذي أمضى حياته مهمومًا يَعْصرُ هَمُّ الاحتضار قلبه.. ويحسب له في أفعاله وأقواله ألف حساب.. فذاك هو اللبيب العارف الفطين.

أخي.. تذكر هذه اللحظة الحاسمة.. فإنها لحظة فضيحة وكرامة.. يفضح فيها العصاة إذا انخذلوا عن الشهادة وتظهر عليهم أمارات السوء، ويكرم فيها المؤمن بالثبات إذ تظهر عليه أمرات الخير، قال تعالى ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [الأنعام الآية: ٩٣].

يـــا لاهيًـــا بالمنايـــا قـــد غـــره الأمـــل
وأنـــت عمـــا قليـــل ســـوف ترتحـــل
تبغـــى اللحـــوق بـــلا زاد تقدمـــه
إن المخفـــين لمـــا شمـــروا وصـــلوا
لا تـــركنن إلى الـــدنيا وزخرفهـــا
فأنـــت مـــن عاجـــل الـــدنيا ســـتنتقل

قال الحسن تأمل أن تعمر عمر نوح، وأمر الله يطرق كل ليلة.

واحتضر سلمان ﷺ فبكى، قيل له ما يبكيك وأنت صاحب رسول الله ﷺ؟ قال: ما أبكي أسفًا على الدنيا، ولا رغبة فيها،

ولكن رسول الله ﷺ – عهد إلينا عهدًا، فتركنا ما عهد إلينا أن تكون بلغة أحدنا كزاد الراكب، ثم نظر فيما ترك، فإذا قيمة ما ترك بضعة وعشرون درهمًا أو بضعة وثلاثون درهمًا.

أخي.. إن لحظة الاحتضار لحظة موعودة.. فيها ينتهي دورك في رحلة الحياة.. وفيها ينقطع رزقك.. وتطوى صحيفة أعمالك.. لتباشر الحساب ﴿**إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [يونس: ٤٩].

ولو تمعنت مليًا في موقفك في تلك اللحظة.. لعلمت أنها لحظة الفصل والجد وأن أكثر الناس عنها غافلون.. فهي لحظة مسير طويل.. بدايته شكرة ونهايته خلود في نعيم أو جحيم. وبحسب حال تلك اللحظة.. تكون طبيعة النهاية قال ﷺ: «**من مات على شيء بعثه الله عليه**» صحيح الجامع برقم (٦٤١٩).

قال إبراهيم التيعي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا.. ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدي الله.

يـــــا بــــــؤس للإنســـــــان في الــــــد
نيـــــــــا وإن نــــــــــال الأمــــــــــل

يعـــــــــيش مكتـــــــــوم العلــــــــل
فيهـــــــــا ومكتـــــــــوم الأجـــــــــل

فيمــــــــا يــــــــرى في صـــــــحة
مغتبطًـــــــــا قيــــــــل اعتلــــــــل

وبينمــــــــا يوجــــــــد فيهــــــــا
ثاويًــــــــا قيــــــــل انتقــــــــل

فـــــــــــأوفر الحــــــــــــظ لمـــــــــــــن
يتبعـــــــــــــه حســـــــــــــن العمــــــــــــــل

قال عمر بن عبد العزيز لأبي حازم: عظني، فقال: اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فتجد فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك، فدعه الآن.

أخي.. إن لحظة الاحتضار قد فضحت الدنيا.. وأظهرت هوانها.. فماذا عساها أن تنفع صاحبها في لحظة موته.. وماذا عساها أن تنفعه بعد موته.. فيا حسرة من فرط في دينه وباعه بلذة فانية.. أو شهوة منقضية ليجدها حسرات وكربات في ساعة المنية..

أخي هي آية واحدة لو عقلها المرء وتدبر معناها لأدرك سر الحياة.. وما يجب عليه فيها من عمل.. قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

تذكر دخولك القبر

أخي.. ما من ابن آدم يحمل على الأعناق إلا ويعرف مستقره في قبره.. وماله فيه من نعيم أو جحيم.. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان. ولو سمعها لصعق**» رواه البخاري.

فتذكر أخي.. ممشاك إلى القبر.. يوم تتمايل بك الرقاب.. ويبكيك الأهل والأحباب.. وأنت على آلة حدباء ملفوف محمول

لا حول لك ولا قوة.. تذكر يوم تحمل.. ما عساك تقول في محملك..

تذكر يوم تدخل قبرك.. ما قدمت من عملك! قال رسول الله ﷺ: «**يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله، وعمله، فيرجع اثنان، ويبقى واحد: يرجع أهله وماله ويبقى عمله**» رواه البخاري ومسلم.

من كان يوحشه تبديل منزله
وأن يبدل منها منزلاً حسنا
ماذا يقول إذا ضمت جوانبها
عليه واجتمعت من ها هنا وهنا
ماذا يقول إذا أمسى بحفرته
فردًا وقد فارق الأهلين والسكنا
وهنالك يعلم قدر الوحشتين وما
يلقاه من بات باللذات مرتهنا

قال الحسن البصري: عجبت لأقوام أمروا بالزاد، ونودي فيهم بالرحيل وهم يلعبون.

وكان يوسف بن أسباط إذا شيع جنازة يكاد يموت فيرجعون به في النعش إلى داره.

هكذا كان حال السلف الذين استوى عندهم الغيب والشهادة.. فهم موقنون بما أخبروا به من أحوال القبر. وعذابه ونعيمه.. وهذا سفيان الثوري كان إذا ذكر الموت، لا ينتفع به أحد أيامًا عديدة. ولا يأكل ولا يشرب. وكان إذا سئل عن شيء يقول: لا أدري.

بل كان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبرًا فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيها فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول: «رب ارجعون لعلي أعمل صالحًا فيما تركت» ثم يرد على نفسه: يا ربيع قد رجعت فاعمل.

قيل لزيد بن يزيد: ما لنا نراك باكيًا، وجلاً، خائفًا. فقال: إن الله توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار. والله لو لم يتوعدني إن أنا عصيته أن يسجنني إلا في الحمام لبكيت حتى لا تجف لي عبرة.

وكان عثمان بن عفان ﷺ إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فسئل عن ذلك، وقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي إذا وقفت على قبر؟! فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن القبر أول منازل الآخرة؛ فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج فما بعده أشد».. فاستعد أخي للسؤال.. وتأهب لتلك الأهوال.. فإن القبر أول منازل الآخرة.. وفيه تظهر حقائق الأعمال..

يـــــا غاديًـــــا في غفلـــــة ورائحًـــــا
إلى مــــــتى تستحســــــن القبائحــــــا؟!
وكـــــم إلى كـــــم لا تخـــــاف موقفـــــا
يســـــــتنطق الله بـــــــه الجوارحـــــــا؟!
واعجبـــــا منـــــك وأنـــــت مبصـــــر
كيـــــف تجنبـــــت الطريـــــق الواضـــــحا؟!
وكيـــــف ترضـــــى أن تكـــــون خاســـــرًا

يـــــوم يفـــــوز مـــــن يكـــــون رابحـــــا

فانظر أخي إلى الدنيا. فإنها برمتها إلى زوال.. وتأمل وحشتك في قبرك، وابتلاءك فيه بالسؤال.. وتذكر أن مستقبلك الحقيقي هو ما بعد موتك.

إن للمـــــــوت ســـــــكرة فارتقبـــــــها
لا يـــــــداويك إذا أتتـــــــك طبيـــــــب

تأهب للحساب

أخي.. إن كنت تحب أن ينور في قبرك.. وأن تجد فيه ما يسرك.. وأن تدخله عزيزًا كريمًا فالحًا مسرورًا.. فحاسب نفسك اليوم على أعمالك، وقف على حقيقة أفعالك.. فإنك لو دققت في حقيقة تقواك ومدى طاعتك لله جل وعلا.. فإنك بلا شك ستعرف نفسك.. وستقدر من أي الفريقين أنت.. وهذا القرآن يدعوك إلى أن تنظر في غدك بعين الحساب والمتابعة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وحقيقة نظرك في نفسك.. أن تحاسبها على كل صغيرة وكبيرة قبل أن تسأل:

وكيف يلـــذ بـــالعيش مـــن هـــو عـــالم
بـــأن إلـــه الخلـــق لابـــد ســـائله
فيأخـــــذ منـــــه ظلمـــــه لعبـــــاده
ويجزيـــه بـــالخير الـــذي هـــو فاعلـــه

قال ميمون بن مهران: من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله عز

وجل فلينظر في عمله فإنه قادم عمله كائنا من كان.

وسأل الفضيل بن عياض رجلاً فقال له: كم أتت عليك؟

قال: ستون سنة.

قال: فأنت من ستين سنة تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ.

فقال الرجل: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٦].

فقال الفضيل: أتعرف تفسيره؟ تقول: إن لله وإنا إليه راجعون، فمن عرف أنه لله عبد، إليه راجع فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول فليعد للسؤال جوابا».

أخي الكريم.. إن الله جل وعلا قد أمرك باتقاء يوم الرجوع إليه لما فيه من الأهوال وسيئ الأحوال فقال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٨١] فكيف ترى يتقي المسلم يوم دخوله في قبره، ومباشرته الحساب؟ أليس بتقوى الله جل وعلا يكون اتقاء العذاب؟ أليس بطاعة أوامر الله.. واجتناب نواهيه والمسارعة إلى الخير؟ أليس بترك المعاصي.. والمسارعة إلى التوبة والرجوع إلى الله.. وترك الغفلة واتباع الهوى؟ أليس بملازمة التفكر في المعاد.. والمداومة على محاسبة النفس.. والخوف من الله.. والاعتصام به من الفتن؟

ألا أيها الناسي ليوم رحيله
أراك عن الموت المفرق لاهيًا

ولا ترعوي بالظاعنين إلى البلى
وقد تركوا الدنيا جميعًا كما هيا

و لم يخرجــــوا إلا بقطــــن وخرقـــة
ومــا عمــروا مــن منــزل ظــل خاويــا
وهم في بطــون الأرض صــرعى جفــاهم
صـــديق وخـــل كـــان قبـــل موافيـــا
وأنـــت غـــدًا أو بعـــده في جـــوارهم
وحيـــــدًا فريـــــدًا في المقـــــابر ثاويـــــا
فكـــن مســـتعدًا للحمـــام فإنـــه
قريـــب ودع عنـــك المـــنى والأمانيـــا

أخي.. استدرك حالك ما دام قد بقي لك في العمر متسع.. وأنب إلى الله بالتوبة والعمل الصالح قبل أن يحال بينك وبين أسباب النجاة.

قال أبو سليمان الداراني: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير طاعة، لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله.

وقال ابن مسعود: ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه نقص فيه أجلي و لم يزد فيه عملي.. واحذر أخي أن تباغتك المنية على حين غفلة منك.. فساعتها لا ينفعك –والله– شيء ولا يمنعها منك أحد.. إلا ما قدمته من عمل صالح.. فعساه أن يكون منجاك في ممشاك إلى القبر.

وهذا نذير من الله لعباده.. يقيم الحجة ويبين المحجة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ

قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩-١١].

تنبه قبل الموت إن كنت تعقل
فعما قريب للمقابر تحمل
وتمسي رهينًا في القبور وتنثني
لدى جدث تحت الثرى تتجندل
فريدًا وحيدًا في التراب وإنما
قرين الفتى في القبر ما كان يعمل

خطب علي ﷺ فقال: ألا وإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وآذنت باطلاع، ألا وإن المضمار اليوم، والسباق غدًا ألا وإن السبقة الجنة، والغاية الموت، ألا وإنكم في أيام مهل، ومن ورائه أجل يرثه عجل، فمن عمل في أيام مهله قبل حضور أجله، نفعه عمله، ولم يضره أمله، ومن لم يعمل في أيام مهله قبل حضور أجله ضره أمله وساءه عمله».

إنا لنفرح بالأيام نقطعها
وكل يوم مضى يدني من الأجل
فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهدًا
فإنما الربح والخسران في العمل

جعلني الله وإياك ممن ينور في قبره ويتجاوز الله عن سوء عمله ويحشره مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.